(٥)

إسقاط الخلافة الإسلامية

وعندما حدث زلزال إسقاط الخلافة الإسلامية ـ فى عشرينيات القرن العشرين ـ تراوحت المواقف واختلفت ردود الأفعال إزاء هذا الزلزال . .

فالأمة ـ بجماهيرها العريضة ـ قد بكت سقوط هذا البناء الذى شاده صحابة رسول الله ﷺ ، والذى حقق مقاصد الإسلام فى وحدة الأمة . . والدار . . وسيادة الشريعة ووحدة القانون .

وعن موقف الأمة هذا ، عبّر أمير الشعراء أحمد شوقى [١٢٨٥ ـ ١٣٥١هـ ١٨٦٨ ـ ١٩٣٢م] عندما قال عن الخلافة . . وإلغائها . . وفتنة ذلك الإلغاء فى عالم الإسلام :

ضجت عليك مآذنٌ، ومنابر ... وبكت عليك ممالك، ونواح
الهند والهةٌ، ومصر حزينة ... تبكى عليك بمَدمع سحّاح
والشام تسأل، والعراق، وفارس ... أمحا من الأرض الخلافة ماح؟

وأتت لك الجمع الجلائل مأتما ... فقعدن فيه مقاعد الأنواح
يا للرجال، لحرّة موءودة ... قتلت بغير جريرة وجُناح
نزعوا عن الأعناق خير قلادة ... ونضوا عن الأعطاف خير وشاح
حسْب أتى طولُ الليالى دونَه ... قد طاح بين عشية وصباح
وعَلاقة فصمت عرى أسبابها ... كانت أبرّ علائق الأرواح
جمعت على البر الحضور، وربما ... جمعت عليه سرائر النّزاح
نظمت صفوف المسلمين وخطوهم ... فى كل خطوة جُمعة ورواح
بكت الصلاةُ، وتلك فتنة عابث ... بالشرع، عربيد القضاء، وقَاح
من قائل للمسلمين مقالة ... لم يوحها غير النصيحة واح؟
عهد الخلافة فىّ أوّل ذائد ... عن حوضها ببراعة نضّاح
حب لذات الله كان، ولم يزل ... وهوى لذات الحق والإصلاح
فلتسمعن بكل أرض داعيا ... يدعو إلى (الكذّاب) أو لسجاح
ولتشهدن من بكل أرض فتنة ... فيها يُباعُ الدين بيَع سماح
يُفْتَى على ذهب المعزّ وسيفه ... وهوى النفوس، وحقدها الملحاح[٦]

هكذا عبر شعر أمير الشعراء ـ أحمد شوقى ـ عن مأتم الأمة لكسر وعاء وحدتها، وطى صفحة الخلافة، التى بناها صحابة رسول الله ﷺ لتكون الامتداد لدولة النبوة فى المدينة المنورة، ولتجسد تميز فلسفة الحكم فى شريعة الإسلام..

* أما المفتونون بالنموذج الحضارى الغربى، الكارهون للنظام الإسلامى فى السياسة والحكم ـ والذين تنبأ أمير الشعراء بهجمتهم على الخلافة الإسلامية، لتشويهها.. عندما قال:

فلتسمعن بكل أرض داعيا ... يدعو إلى (الكذاب) أو لسجاح

فلقد تجاوزوا موقف الفرح ـ فى مأتم الأمة ـ إلى حيث أرادوا إهالة التراب على تاريخ هذه الخلافة، والتشويه لصورتها، والافتراء على طبيعتها.. وذلك حتى يصدوا الأمة عن أى أمل فى إعادة إحيائها، وتجديدها.. فكتب الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ ـ ١٣٨٦هـ ١٨٨٧ ـ ١٩٦٦م] عن الخليفة والخلافة الإسلامية، مصورا إياها نظامًا للقهر والاستبداد ـ حتى فى عهدها الراشد! ـ وزاعما أنها سلطة دينية ـ كالدولة الكنسية الأوروبية ـ فقال: «**إن الخليفة ولايته عامة مطلقة.. وهو يقوم فى منصبه مقام الرسول ﷺ.. وينزل من أمته منزلة الرسول من المؤمنين.. فولايته كولاية الله ـ تعالى ـ وولاية رسوله.. بل لقد رفعه المسلمون فوق صف البشر، ووضعوه غير بعيد من مقام العزة الإلهية.. ولم ترتكز الخلافة ـ [على مر تاريخها.. وحتى فى عهدها الراشد] ـ إلا على أساس القوة الرهيبة**»!![٧].

* ولقد شاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يأتى الإنصاف للخلافة الإسلامية، من خارج دائرة الإسلام.. ومن خارج دائرة علماء الإسلام.. فصدرت العديد من المؤلفات، التى كتبها عدد من المستشرقين، حمل أغلبها الإنصاف والموضوعية فى الحديث عن طبيعة الخلافة وعن تاريخها.. لقد كتب «سير توماس أرنولد» [١٨٦٤ ـ ١٩٣٠م] كتابه عن [الخلافة] ١٩٢٤م.. وكتب «سانتيلانا» [١٨٥٥ ـ ١٩٣١م] عن [الخلافة والسلطان فى الشرع الإسلامى] ١٩٢٤م.. وكتب «جب» [١٨٩٥ ـ ١٩٦٧م] عن [نظرية الماوردى فى الخلافة] ١٩٣٧م.. وعن [الخلافة فى الإسلام] ١٩٣٩م.. وعن [الخلافة عند السنة]

١٩٤٧م . . وعن [تطور الحكومة فى صدر الإسلام] ١٩٥٥م . . وعن [الحكومة والإسلام فى صدر العصر الجاهلى الأول] ١٩٦٢م . . كما كتب «مرجليوث] [١٨٥٨ ـ ١٩٤٠م] عن [الاعتبارات التاريخية فى الخلافة] ١٩٢١م . . وعن [معنى كلمة الخليفة] ١٩٢٢م . . وعن [الخلافة] ١٩٢٤م . .

وفى كثير من هذه الكتابات، ميز علماء الاستشراق ـ وأغلبهم خبراء فى الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية ـ بين الطبيعة المدنية للخلافة الإسلامية وبين الطبيعة «الدينية ـ الحَبْرية . . الكهنوتية» للدولة الكنسية التى عرفتها أوروبا فى عصورها الوسطى . . وأكدوا على أن إسلامية القانون فى الخلافة الإسلامية لا تعنى أن دولة هذه الخلافة كانت دولة دينية، بالمعنى الكنسى الغربى .

وكنموذج على هذا الفكر الموضوعى، والمنصف للخلافة الإسلامية . . كتب المستشرق «دافيد دى سانتيلانا» يقول : «**إن خلفاء الرسول ما هم بوارثى رسالته الروحية . . لقد أبى أبو بكر قبول لقب «خليفة الله»، واكتفى بلقب «خليفة رسول الله»، ثم درج لقب «أمير المؤمنين» منذ زمن عمر بن الخطاب، فحدد بكل وضوح صفة ممثل السلطة العليا، الذى هو فى الحقيقة ليس عاهلا «ملكًا» بل هو «أمير» . . أما وظيفته الدينية ـ وهى أصل جميع وظائفه الأخرى ـ فليس منها ما يضفى على الخليفة صفة القداسة، أو يسمه بميسم الكهنوت . . إن سلطة الخليفة، كرئيس دينى، لا يمكن أن تعتبر سلطة حَبْرية أو بابوية، فهو**

متجرد تمامًا من صفة الكهنوت؛ لأن حكومة المسلمين ما كانت فى أى زمن أو ظرف حكومة دينية، ولم يوجد فيها تعاقب رسولى..»[٨].

* أما فرية القهر والاستبداد ـ التى رميت بها الخلافة الإسلامية ـ والتى اعتبرت مكونًا أساسيًا من طبيعتها وبنية تكوينها ـ فلقد شاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يأتى الرد عليها من الدكتور طه حسين [١٣٠٦ ـ ١٣٩٣هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م] ـ الصديق الحميم للشيخ على عبد الرازق!! ـ فلقد كتب عن هذه الخلافة فقال: **«قد يظن بعض الذين تخدعهم ظواهر الأمور أن نظام الحكم الإسلامى ـ [فى العهد النبوى وفى الخلافة] ـ كان نظامًا ثيوقراطيًا.. يستمد سلطانه من الله، ومن الله وحده، ولا شأن للناس فى هذا السلطان.. ولا شك أن هذا الرأى هو أبعد الآراء عن الصواب.. ذلك أن الإسلام لم يسلب الناس حريتهم، ولم يملك عليهم أمرهم كله، وإنما ترك لهم حريتهم فى الحدود التى رسمها لهم.. لقد ترك لهم عقولاً تستبصر، وقلوبًا تستذكر، وأذن لهم فى أن يتوخوا الخير والصواب والمصلحة العامة والمصالح الخاصة ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.. وما من شك فى أن خليفة من خلفاء المسلمين ما كان ليفرض نفسه وسلطانه عليهم فرضا إلا أن يعطيهم عهده ويأخذ منهم عهدهم، ثم يمضى فيهم الحكم بمقتضى هذا العقد المتبادل بينه وبينهم... فالخلافة الإسلامية عهد بين المسلمين وخلفائهم.. ولقد قام أمر الخلافة كله على البيعة، أى على رضا الرعية، فأصبحت الخلافة عقدًا بين الحاكمين والمحكومين، يعطى الخلفاء على أنفسهم العهد أن يسوسوا المسلمين بالحق والعدل، وأن يرعوا مصالحهم، وأن يسيروا فيهم سيرة النبى ما**

وسعهم ذلك، ويعطى المسلمون على أنفسهم العهد أن يسمعوا ويطيعوا وأن ينصحوا ويعينوا . . لذلك، فإن الرأى القائل بأن نظام الخلافة إنما هو النظام الثيوقراطى الإلهى . . هو أبعد الآراء عن الصواب . .

لم يكن نظام الحكم الإسلامى نظامَ حكم مطلق، ولا نظامًا ديمقراطيًا على نحو ما عرف اليونان، ولا نظامًا ملكيًا أو جمهوريًا أو قيصريًا مقيدًا على نحو ما عرف الرومان، وإنما كان نظامًا عربيًا خالصًا، بيّن الإسلام له حدوده العامة من جهة، وحاول المسلمون أن يملئوا ما بين هذه الحدود من جهة أخرى . . لقد كان نظامًا إنسانيًا، ولكنه على ذلك تأثر بالدين إلى حد بعيد جدًا. لم يكن الخليفة يصدر عن وحى أو شىء يشبه الوحى فى كل ما يأتى وما يدع، ولكنه على ذلك كان مقيدًا بما أمر الله به من إقامة الحق وإقرار العدل وإيثار المعروف واجتناب المنكر والصدود عن البغى»[٩].

هكذا شهد طه حسين للخلافة الإسلامية . . ونفى عنها تهمة الاستبداد . . وفرية الثيوقراطية جميعًا . .

* * *